دراسات وبحوث

الآثار الفكرية للتبعية

■ هادي قبيسي
باحث في الفكر الإسلامي المعاصر، بيروت

ملخّص

تطـرح قضيـة التبعية في ظلِّ اختلال موازين القوى واضطراب العلاقـات الدولية نظراً إلى وجود حالة الهيمنة والاسـتتباع المادي والمعنوي، ورغم وضوح آثار اختلال التوازن في العلاقات بين المكونات الدولية المختلفة.

فـإنَّ المهيمن عمدَ دوماً إلى تظهير تسـلطه كخدمة يُقدمها للمسـتضعفين، فخفي عـن كثيرين تأثير الهيمنـة التي تأخذ كل التحركات الاجتماعية الخاضعة لها باتجـاه خدمة مصالح فئة واحدة، وينطبق ذلك على المجال الفكري، حيث يحرم تدفق الثقافة المهيمنة الآخرين من إمكانية تشغيل حركة فكرية ملائمة لتطلعاتهم ومتناسـبة مع احتياجاتهم، وهذا ما يُعطل الحركة الفكرية ويحصرها في الاستهلاك والبيئة وخدمة السـياق الفكري الذي يريده المنتِج الأجنبي المختلف في بنيته وشـخصيته وبيئته.

تطرح إشـكاليات عديدة ومتشـابكة في هذه المسـاحة، فهل الناتج الأجنبي الذي يأتي من المهيمن هو مؤثر سـلبي في النشـاط الفكري للمسـتضعفين؟ وهـل أن تقبل ذلك الناتـج وتبيئته مع المجتمع المسـتضعف له آثار سـلبية كذلك؟ وهل كل ما يأتي من الدول التي مارسـت الهيمنة هو منتج مدمج بفكرة وبرنامج الهيمنة؟ كيف تعامل المهيمن مع قضية الهيمنة الفكرية تحديداً؟ وكيف ينظر إلى هذه الإشـكاليات وكيف يُوظفها في تطوير مدى هيمنتـه وإدامتها؟ وإذا لم يكن لدينا تحديث فكري مبني عـلى الثقافة الغربية التي هيمنت خلال عقود وقـرون، فكيف يمكن أن نصف الحركة الفكرية الناتجة عن هذا التحديث؟

الكلمات المفتاحية:
الهيمنة، التبعية، النموذج الغربي.

مُقدِّمة:

ناقشَ التيارُ التحرُّري إشكالية التبعية الثقافية وتأثيرها على الحريات السياسية والاقتصادية للشعوب الواقعة تحت ظلِّ الهيمنة، كما كانت هذه الإشكالية مدار بحث لناحية تأثيرها على الاستعدادات التحرُّرية للشعوب تحت الاحتلال المباشر. زاوية البحث هنا تتعرضُ لبُعد مختلف: كيف تؤثر التبعية للفكر الغربي تحديداً على الإنتاج الفكري في البيئات المعرضة لموجات الهيمنة، وهل يمكن إنتاج الأفكار عند التموضع داخل النظام الفكري الغربي؟ وانطلاقاً من هذا السؤال التأسيسي يتعامل البحث مع ثلاث قضايا رئيسة:

نشأة وماهية الاستتباع، ويتعرض لتفنيد عوامل جاذبية الطرح الغربي.

تأثيرات الاستتباع، ويناقش أطروحة التقدم والتحديث المرتكز إلى الاستيراد.

البديل الذاتي ويعرض لمقومات البيئة الطبيعية للإنتاج الفكري الذاتي.

وصلت التجربة الغربيَّة في هذه المرحلة إلى انعطافةٍ حادَّةٍ على الصَّعيد الأخلاقي، من خلال الترَّويج للشُّذوذ وتفكيك الهويَّة الشَّخصية للإنسان، وتخريبِ عالَمه الشعوري والنفسي والاجتماعي، ويتمُّ طرح هذا المشروع في سياق البنية الثقافية المهيمنة، والتي أسَّسها الغرب في مجتمعاتنا، وتتمُّ موضعته ضمن إطار منهجي واستدلالي بحيث يتم السكوت عنه بالدرجة الأولى، ومن ثم التغافل والرضا بهذا الانحراف. المشكلة ليست في هذه الانعطافة الحادة فقط، بل إنَّ هذا الانحراف الجنوني، هو نتيجة للنظام الفكري الغربي، والذي ينبغي أن نعيد التذكير بقدرته على المخادعة والمراوغة، وإقناع النخب التابعة له بأنها تخوض عملية تحديث تطوير لمجتمعاتها "المتخلفة".

■ أولاً: نشأة وماهية الاستتباع

يُقدِّم الطرحُ الفكري الغربي مجموعة من عناوين التفوق، أولها امتلاك العلاج للمشكلات

والتحديـات البشرية، والثاني إثبات القدرة على الإنجـاز الحضاري التكنولوجي والاقتصادي بالاسـتناد إلى ذلك الفكر، والثالث تقديم الطرح الغربي على أنه إنسـاني محايد وعقلاني غير مُنحاز، وبالتالي يمكن اسـتيعابه وتقبلُّه بغض النظر عـن الهوية الثقافية المحلية، ويمكن تبنِّي العلمانية كما حصل في التاريخ الإسـلامي دون التخلِّي عن الهوية والإنتاج الفكري الخاص، على اعتبار أن تلك الأفكار ترشـح بشـكل عفوي عن المصنع الفكري الغربي وبالتالي يمكننا اختيار ما نشاء وما يتناسب منها مع منظومتنا.

العلمانية كاتجاه سلبي في التغيُّر الثقافي

الحالة العلمانية هي تاريخياً حالة تغيّر ثقافي حضاري شامل باتجاه سلبي، إنه ليس مشروعًا نشـأ من خلال انتقال إلى اعتقاد جديد أو ديانة جديـدة، إنها عملية حصلت من خلال تفكك وتداعٍ لنظام ثقافي، ثم البحث عن بديل. لم يكن البديل هو الذي أنتج التحوّل، بل إن التداعي حصلَ قبلاً بشكل مستقل، ومن ثم بدأ البحث عن البديل، ولم يكن هذا البديل حاضراً، بل إنَّ حركةَ البحث عنه لا تزال قائمةً حتى الآن. بدأ التحوّل في أوروبا مع الحرب الدينية التي نشبت بين الكاثوليك والبروتسـتانت عام 1618، والتي أدَّت إلى إضعاف السلطة الدينية، "مع سقوط الإمبراطورية الرومانية المُقدسـة وهابسـبورغ، تغيَّرت أوروبا الغربية بشكل كبير، حيث تحول ميـزان القوى من روما والديـن إلى مجموعة أكثر علمانية من الدول التـي كانت أكثر اهتمامًا بالتجارة والاقتصاد والشؤون غير الدينية"(Smith, 2011)، هكذا تصف نيكول سميث التحوّل.

بفعل تلك الحرب الدموية بدأ التداعي الكبير والاتجاه نحو التخلِّي عن الدين، وخلالها وقبل نهايتهـا، بدأت تنتشر الطروحات الجديدة، وأولها طـرح الكوجيتو الديكارتي، "أنا أفكر إذاً أنا موجود"، كبديل عن الرؤية الوجودية الدينية، وإن لم يكن بشـكل مباشر، لكنه كان إيذاناً ببدء الصراع مع المؤسسـة الدينية، والذي سـيؤدي إلى التطرُّف الحاد في الطروحات المقابلة. بدأ التداعي من المجال السـياسي في البداية، ومن ثم بدأ البحث عن البديل، وبحسـب سميث، "مـن نواحٍ عديدة، كانت هناك نتيجة أخرى أكثر عمومية للحرب وهي أنها سـمحت لأول مرة في التاريخ الأوروبي لدولة ما بالحصول على مكانة بارزة بسـبب التجارة والاقتصاد والسياسة بـدلاً من كونها مركزاً للتسلسـل الهرمـي الديني"(Smith, 2011)، هـذا الانقلاب الكبير، فتح

المجال للبحث عن البدائل.

في تحليـل هذا التحوُّل، يـرى إريك فوغلين أنَّ التحوُّلات والصراعات التي جرت في أوروبا إبان ما يُسـمَّى بـ(عصر النهضة) تشـبه أي تحول تاريخي فوضوي آخر، لكن تم تحويلها إلى مـادة نظرية وفكرة وحقل مـن الرموز والمفاهيم، "في النهج التقليدي الحديث للسياسـة، يتمُّ قبـول نتائـج (عصر النهضة) على أنَّها أُسُّـسٌ لا جـدال فيها ولا نقاش. وتتمتـع هذه المرحلة التاريخية العابرة بالتقديس المماثل للنظام الطبيعي للأشياء؛ وتستخدم الرموز السياسية المُعبِّرة عن هـذه المرحلة وكأنَّها مفاهيـمٌ نظرية" (Voegelin, 1998) ، يمكن من خلال هذا السـياق التاريخي لنشوء الاتجاه الفكري المادي أن نفهمَ أحدَ أبعاد الإضطراب الذي يسمُ هذا الاتجاه، والتقلُّبـات والانتكاسـات الأخلاقية والتشـوُّهات الروحية، وكرة الثلج التـي انطلقت من قمة الصراع السياسي ستتحول إلى أدنى الرذيلة بعد أن تجتازَ مجموعةً من المراحل.

لقد حدَّدت العلمانية، في حالتها الشاملة، ما لا ينبغي أن يكون، وقالت أنَّ الدينَ لا ينبغي أن يكون معتبراً كأسـاس فكري، لكنها لم تحدد ما ينبغي أن يكون، ولذلك تركت البديل مفتوحاً على كل خيار وصولاً إلى الشذوذ والكلاب البشرية.

الجذور الثقافية الغربية للعلمانية

تختلف مسـارات ومـآلات التوجه نحو العلمانية بين ما حصـل في الغرب وبين ما حصل أو يمكـن أن يحصل في الحضارات الأخـرى، لأن العلمانية بدأت من داخـل الحضارة الغربية، واتجهـت تلك الحضارة نحو العلمانية نتيجة إرادة محليـة دفعت نحوها الضرورة، وإن كانت تلك الإرادة الحـرة مدفوعة بعوامل تاريخية وفكرية واقتصادية واجتماعية ضاغطة ومؤثرة، إلَّا أنَّهـا كانـت تتحرك داخل الإطـار الغربي، وإنَّ حركـة الوعي الغربي نحو التغيـير كانت تتولد بفعل مشـاهدات ومعايشـات تفصيلية على مدى عقود طويلة، دفعـت باتجاهات محددة تبعاً للصراعات وتطور الأسئلة والأفكار والمعالجات والنزاعات، وبذلك يمكن القول: إنَّ العلمانيةَ ولدت بإرادة غربية وفق وعي غربي متنام، ووفق قناعات تشكَّلت على الأرض على مرِّ السنين.

وكذلـك يمكـن القول: بـإنَّ العلمانيةَ لم تكن مؤسسـة عـلى رؤية وقواعـد هادفة وطموحة للتغيير، بل على تعددية تظهر عدم وجود فكرة مسبقة ناضجة في نظر النخبة، بحيث يقع عليها

الإجماع في خطوطها الكلية. ويمكن سوق شاهد مهم على هذا السياق هو الحرب الدينية التي استمرت ثلاثين عاماً، والتي تُشكِّلُ عمدة التداعي الفكري الغربي إلى جانب إشكالية غاليلو الفلكية واكتشاف الأراضي الجديدة ما وراء الأطلسي، والآثار الاقتصادية والسياسية والتكنولوجية التي تركها هذا التطور الهائل.

والمقصود هنا هو أنَّ العلمانيةَ لم تتحرك في التاريخ كطرحٍ جاهزٍ، كما تفعل الأديان السماوية، بل هي حالة تجريبية مضطربة ومتحولة وتعددية ومتغيرة، نتجتْ عن ظروف مُحددة.

السياق الاقتصادي لنموّ العلمانية

لقد تقاطعت مسارات متعددة المستويات لتولد التحول الغربي، الذي هو مالي واقتصادي وتكنولوجي بالأساس، "مع إنشاء مستعمرات ما وراء البحار من قبل القوى الأوروبية في أوائل القرن السابع عشر، واكتسبت النظرية المركنتيلية أهمية جديدة وأوسع نطاقًا، حيث أصبح هدفها ومثالها قوميين وإمبرياليين" (Johnson, 1915). إذ تزامنت حركة الحرب الدينية بتداعياتها الكبرى، مع الردة الفكرية، ومع المسار الاستعماري الناهب في بداية القرن السابع عشر، وبدأت الفكرة القومية/العلمانية تتغذى على التدفُّق المالي الاستعماري، كما غذَّى هذا التدفق المالي التحول من الزراعة كمرتكز رئيس للاقتصاد إلى التجارة الحرة في بلاد ما وراء البحار، التي دعمت الفردنينية

ية وأعادت تشكيل النظام الاقتصادي بقوى جديدة، وأضعفت النظام السياسي/الاقتصادي الذي كانت تحكمه الكنيسة والملكية (Weingast, 2017).

ويصعب أنْ نجدَ في السرديات التاريخية الغربية الحاكمة ربطاً تحليلياً واضحاً بين الاستعمار والتدفق المالي الناتج عنه وبين التغيير الثقافي الذي حصل داخل أوروبا، ذلك أن أغلب القراءات، حتى النقدية منها، تنحو إلى تجاهل هذه النقطة، مع الإشارة إلى أنَّ إريك هوبسباوم في "عصر الثورة" يُبيِّنُ مدى ارتباط السيطرة على القطن ومعامل النسيج الهندية وبين تطوير معامل الغزل البريطانية التي تعمل بالطاقة البخارية، وهنا ارتبطت المسارات العلمية بالاستعمارو بالناتج المالي.

إنَّ تقديرَ قيمة وأثر الموارد العينية، وخصوصاً المعادن الثمينة، والتي تمَّ نهبها من أمريكا

الشـمالية والجنوبيـة، بكميات هائلة تفـوق الخيال، يبقى مغفلاً في أغلـب السرديات، ليبقى المعطـى الفكري الذي نتج عن الحرب الدينية، كما تقـول مارغريت جاكوب: "كان الموقف الديني لعصر التنوير ردًا على القرن السابق من الصراع الديني في أوروبا، وخاصة حرب الثلاثين عامًـا"(Jacob, 2001)، هو العامل الرئيـس المأخوذ بعين الإعتبار، كسـبب للنقلة الاقتصادية الغربيـة، مع تركيز كبـير على دور المُفكِّرين العلمانيـين كأنبياء جدد قدَّموا طرحاً مسـتحدثاً، بالتـوازي مع إهـمال رواية الحرب الدينية وتأثيراتها في أغلـب السرديات الغربية، ليظهر إنتاج المفكرين العلمانيين كاكتشاف علمي خارج السياق السياسي والثقافي للمجتمع الأوروبي.

كلُ هذا السِّـياق الاقتصادي والثقافي والسـياسي يتم تغييبه، وتحصل عملية توضيب للفكرة العلمانية لأجل التصدير، بعد أن تتم تنقيتها من كل العوامل السـياقية، لتقدم على أسـاس أنها طـرح تفتح من قريحة مجموعـة من المفكرين، نتيجة إبداعهم الخاص، ويتم إسـقاطها على ثقافـات أخرى لم تمر في السـياق التاريخي الغربي، ولا تملك المـوارد التي حصَّلها الغربي من خلال الاسـتعمار، ولم ينتج عن حروبهـا الدينية طوال القرون حالة الردة التي حصلت في أوروبـا، الردة التي نتجت عـن تزاوج بين الحرب الدينية الدموية وبـين الاختلال الذي أحدثه اكتشاف جاليلو في بنية السلطة الدينية. كل ذلك تم إقصاؤه لكي تُقدَّمَ العلمانية على طبق نقي للشعوب الأخرى، كدواء لكل المشكلات.

لقد تم اختيار وانتقاء متغير واحد لتفسير ظاهرة تحول تاريخي وردة ثقافية هائلة، وذلك لكي يتمَّ تقديمُ المسـتعمر على أنه مشروع ثقافي تحديثي وفق نسق "واجبات الرجل الأبيض"، وتمَّ استخدامُ هذا النموذج بشكل معاكس في الدول المستهدفة بالاستعمار، وتم توظيف العلمانية كأداة ضـد الهوية الثقافية المحلية التي ترفض الهيمنة بشـكل تلقائي، وتمَّ اسـتخدام النموذج المصطنع لـ"الطرح" الغربي ليسـتطيع مواجهة الثقافات والحضـارات الأخرى وتجريدها من خصوصيتهـا وتفكيـك عناصر وجودها، ولم يكـن ذلك ممكناً من دون تحييـد رواية الحرب الدينية وتزامنها مع الثغرة التي اكتشفها جاليليو في النص الديني، ليتم تقديمها كمعطىً ناجز.

العلمانية في مأزق الصراع والتطرُّف

إنَّ تولُّد العلمانية من رحم الصراع، وعدم قيامها على أسـاس تنظير غائي واعٍ يهدف إلى رسم

خطة للبشرية تناسب الإنسان، جعلها تتجه نحو التطرُّف ونحو الاختزال، وبالتالي سيحرمها من العالمية المنشودة، لأنها لم تقم على أساس نظري مبني على معرفة بالإنسان ومن ثم التخطيط لحياته، بل إن هذا التخطيط نشأ كردة فعل على تاريخ خاص وماضٍ نتج عنه أزمات عميقة ومتفجرة، دفعت إلى تغيير المسار الفكري لحضارة كاملة، وتمثل هذا التغيير في اتفاقية وستفاليا 1648. شيئاً فشيئاً، وصلت العلمانية إلى العالمية بفعل الهيمنة المادية، وليس بفعل تلاؤمها مع الإنسان وطبيعته، لا بل إنها الآن تدعو إلى هدم الإنسان، وتغيير هويته الجنسية وتغيير طبيعته العائلية، بعد أن دمَّرت مشاعره وأحاسيسه وجزءاً كبيراً من قدرته على المعرفة والإدراك العقلي.

يستعرض فوغلين القضايا والإشكاليات التي واجهت الفكر الغربي بعد انهيار الكنيسة والتي دفعت نحو ايجاد حلول بأيِّ وسيلةٍ للعثور على بديل، "لا يمكن للمرء أن يتحدث عن نظرية على الإطلاق، كما قلنا، قبل نهاية القرن وعودة الحالة المدرسية. القاسم المشترك بينهم هو مشكلة جديدة يحاولون حلَّها بمهارة إلى حدٍّ ما عن طريق الأجزاء النظرية المنتقاة من الأدب القديم والعصور الوسطى. تنشأ مشكلتهم من خلال تحرير النظام السياسي (مصطلح الدولة غير مسموح به بعد) من قيود النظام الكاريزمي المغلف للمسيحية الإمبريالية. ما الذي يمنح الشرعية للحكم عندما تسقط العقوبة المتعالية؟ ماذا يتبقى من شرعية الحكم عندما يكون الملك على خلاف مع مجموعات كبيرة من رعاياه حول مسألة الدين؟ إذا كانت الشرعية تعتمد على التوافق مع الرغبات الدينية للناس، فمن يكون الحاكم إذا انقسم الناس دينياً؟ وإذا حُذف موضوع الدين وسقط هذا المعيار، فما هو إذاً أساس السلطة الحكومية؟ إذا كان يجب أن نعود إلى التقاليد، فماذا يجب أن نفعلَ إذا فرضت الظروف خروجًا جديدًا؟ وإذا استمدينا الحكم من المؤسسة والموافقة الشعبية، فأين نجد أصل شرعية الشعب ؟"(Voegelin, 1998) ، فهي مشكلة اجتماعية خاصة بالتجربة الغربية، تمَّت موضعتها في سياق فكري وتحويلها إلى إطار فكري، وتم تسمية مرحلة الصراع وتفكيك النظام القائم بـ "عصر الأنوار"، رغم أن الظلامية ظلَّت حاكمة، وما نتج عن الاستعمار وعن التحديث من حروب داخل أوروبا وأمريكا وخارجها، وخصوصاً الحربين العالميتين، يؤكد أن التحول لم يحصل، وأن العصور الوسطى ظلَّت قائمة بظلمها وإجرامها.

العلمانية في الحالة الإسلامية

كانت العلمانية المرتبطة بانفصال الدين عن السياسة، بمعنى فقدان حاكمية المعايير الدينية على السلطة الزمنية، موجودة معظم التاريخ الإسلامي، "رغم أصول الإسلام وتعاليمه حول العلاقة بين الحياة الدينية والسياسية الإسلامية فقد تطور المجتمع بطرق غير إسلامية. في الواقع، الحياة الدينية والسياسية طوَّرت مجالات مُتميزة من الخبرة، مع قيم مستقلة وقادة ومؤسسات منفصلة"(Lapidus,1975)، لكن تأثيرات هذه الحالة ودوافعها وآثارها الفكرية والاجتماعية والأخلاقية كانت مختلفة، ولا يمكن تقصِّي الفارق بين التجربتين حصراً في مسار التقدم والتخلُّف الذي أملاه التحول الغربي وماكينته الثقافية، بل كانت التجارب الإسلامية متفاوتة ومختلفة لناحية التقدم أو التخلف، سواءً من الناحية العلمية أو الفكرية أو السياسية أو ما يرتبط بالانتظام الدولي وقيام الإمبراطوريات. ثمة فوارق أخلاقية وسياسية وفكرية متنوعة، فالنموذج الاجتماعي والعائلي والفردي الذي نما واستمرَّ وتطور تحت ظلِّ السلطات الزمنية الإسلامية التي لم تكن تخضع بشكل كامل للمعايير الدينية الإسلامية، لا يشبه النموذج الذي يطرحه الغرب اليوم، والذي وصل إلى تدمير الفكر والهوية الأخلاقية بشكل نهائي.

إنَّ التيارَ السياسي الذي دفع باتجاه تحويل الخلافة إلى مَلَكية ومُلكية كان مدفوعاً بعوامل سياقية كذلك، فالسلطة التي تأسَّست مع الدولة الإسلامية وتجاوزت الأطر القبلية والمناطقية ودخلت من الباب الديني العريض، شكَّلت لبقايا نخبة المرحلة الجاهلية والقوى السفيانية تحديداً عائقاً أمام العودة إلى السلطة، والتموضع على رأس الإمبراطورية الواسعة التي تضخَّمت بما لا يقارن بـ "ملك قريش" البسيط في مكة. لذلك كانوا بحاجة إلى التسلل من داخل المنظومة الإسلامية، والمحافظة على منبر رسول الله ومسجده، لكن مع تغيير المُعطى الثقافي ودستور السلطة الفعلي، ليتسنى لهم توظيف هذا الموقع لصالحهم الفئوي والشخصي.

لم تكن المشكلة في استيراد الأفكار العلمانية وإعادة هضمها واستنباتها فقط، بل إنَّ الإشكاليةَ التي نعالجها هنا، هي التبعية واستيراد التجربة، وليس استيراد الفكرة، فالغرب كما تبيَّنَ لدينا لم ينتج فكرة، بل كانت الفكرة نتيجة للتجربة التي خاضها بطريقته الخاصة وبأزماته وجراحه

وكوارثــه الخاصــة. ونتيجة لذلك، فإنه عندما تحصــل حالة التبعية للغــرب، فإننا لا نتبع فكرة واضحة محددة، بل حالة وتجربة متفاوتة من خلال التعددية الكبيرة للأفكار، متغيرة مع الزمن ومُتقلِّبة، وتتجه نحو التســافل تدريجياً، والآن وصلت إلى الترويج الممنهج والشامل للشذوذ الجنسي وتغيير الجنس ابتداءً من الطفولة.

مضافاً إلى ذلك، فإنَّ الغربَ لا يسمح بنقل المنافع المادية والاقتصادية لعملية التحديث إلى البلدان التي يدعوها إلى اتباع منظومته الفكرية، بل هو يريد من خلال هذا الاستتباع أن يحصلَ على موارد تلك البلدان وأسواقها.

الردة التاريخية عن التديُّن

لقد بدأت هذه التجربة السلبية من خلال التداعي والانهيار الفكري وحصول الردة الحضارية الشــاملة للغرب الأوروبي عن التدين الاجتماعي والفردي وانهيار منظومة القيم، والمترافق مع تفــكُّك ســلطة المعايير الدينية في المجال الســياسي، بغض النظر عن مــدى قيمتها الإيجابية وحجــم انحرافاتها، لكن ما حصل في الغــرب هو دمج وموازاة حادة بين الانهيارات الأخلاقية والسياســية والفكرية، نتيجة نشــوء موقف ســياسي وثقافي حادٍ ضد الدين برمتــه، وبين تقدُّم الاستعمار والنهب الذي بدأ بدعوات تبشيرية ومظلة كنسية في البداية.

إنَّ تحميلَ الدين مســؤولية التخلُّف الحضاري يتناقض مع تجارب حضارية تاريخية عديدة، منهــا التجربة الإســلامية، وحتى في الســياق الأوروبي، فإن الحداثة تقدَّمت واســتمرَّت حتى منتصــف القرن العشرين، وكان المجتمع الأوروبي والأمريكي يعيشــيان وفق النظم المحافظة عــلى الأخلاق الفردية والعائلية، واســتمرَّ الالتــزام الديني والحضور الكنسي قائماً ومســتمراً، وحتــى الآن، فــإن المجتمع الأمريكي منقســم بين الليــبرالي والمحافــظ، ولم ينحصر التقدم التكنولوجي في البيئة الليبرالية. فالفكرة العلمانية الليبرالية التي تقدم نفسها كبديل حضاري، لا تملك المُبرِّرات الكافية لتربطَ نفسها بالتقدُّم، أو تحصر التقدم بها، لا من الناحية النظرية، ولا من الناحية العملية، حيثُ إنَّ الدولَ التي ألحقت نفســها بالركب الغربي من الناحية السياســية والاقتصاديــة، لم تتقدم حضارياً، بل لا يزال جزءٌ كبيرٌ مــن دول أفريقيا التي يهيمن فيها النفوذ الغربي، تعيش حالة العوز والفقر بسبب البرامج الغربية للنهب.

النُّخب المُتحكِّمة بالتحديث

إن تمكُّن الهيمنة الغربية من التحكُّم بهذا التحول من خلال النخب، وفرَّ لها فرصة صنع نخب ورفع أخرى مُحملة إياها بالأفكار ما بعد حداثوية التي سيتم تغرير الناس بها، وما استطاعت الصين فعله هو الحفاظ على انتماء النخب وهويتها وارتباطها بالمنظومة الاجتماعية والسياسية المحلية، رغم الانخراط المدروس بالنموذج الليبرالي. وتختلف هذه التجربة عن حالات الإخضاع والتبعية العمياء والرضوخ للهيمنة، التي لا يمكن المقايسة بينها وبين تجربة قصدية واعية ومخططة للتملُّص من الغرب مع الاستفادة من النتائج السياسية لتجربته الماضوية، وخصوصًا في المجال التكنولوجي.

إنَّ الدولَ الغربية المهيمنة لا تترك -في العادة- عملية التغريب والاستتباع لتجري كحالةٍ تاريخيَّة متدرِّجة تنتقل من خلالها الأفكار الإيجابية وبانتقاء من التجارب الاجتماعية والسياسية والفكرية الغربية، بل هي عملية مُقننة ومدارة ومنظمة[1]، بدءاً من تعويم مرجعيات محددة ورموز بعينها وصولاً إلى القوانين التي تسمح بإدارة وتنظيم عملية التغريب، وانتقالاً إلى المنظمات المدنية والنخب المحلية التي تنفذ برامج مُصمَّمة خصيصاً للاستتباع، وتتقاضى مقابلها أجوراً شهرية.

■ ثانياً: تأثيرات الاستتباع

الاستتباع عملية منظمة، هذه هي الفكرة المركزية في هذا القسم؛ وهذا القصد هو جزء من عمليات فرض الهيمنة. يحتوي التصدير الغربي على أفكار تستبطن التفكيك، والصراع الاجتماعي على كل المستويات؛ وهنا تعرُض لنا التجربة الصينية التي استطاعت الفِكاك من الهيمنة، رغم التعرض للتهجين الثقافي. ولكن تواجهنا في هذا السياق مجموعة من الأسئلة المتعلقة بالتأثيرات العمقية للتغريب القسري في عمليات الانتاج الفكري، وابداع الحلول الملائمة للمجتمعات المُعرّضة للهيمنة.

---

1 - راجع: قبيسي،هادي (2021) الاحتلال الذاتي: آليات الاستتباع الناعم للقوى الغربية، مجلة جامعة المعارف، العدد 3.

تصدير التداعي

مضافاً إلى الإشـكاليات المتولدة من طبيعة التجربة التي حصلت داخل النطاق الغربي، فإنَّ ثمةَ إشـكالية رئيسـة تتعلق بتصدير التجربة الغربية بالتزامن مع فرض المشروع الاسـتعماري، إذ لم يحصل هذا التصدير من خلال نقاش فكري وطرح أفكار بشـكل موضوعي، بل إنَّ هذا الانتشار العام لنتائج السياق السياسي للماضي الغربي ومفرداته الفكرية، كان متسقاً ومقصوداً ومنظـماً ومنطوياً ضمن البرنامج الاسـتعماري(الفاطمي، 2018). ويمكـن القول :إنَّ التحوُّلَ نحو العلمانية لدى الشعوب المسيطر عليها تم تحت إشراف وتوجيه وإحكام وتحكم وسيطرة الدول الغربية المسـتعمِرة، وهو الأمر الذي سـيدمر الحضارة السابقة ولن ينتج حضارة لاحقة، بل سـينتج مسـار تداعٍ ومواكبة إسـقاطية للتحولات الغربية كبديلٍ يحلُّ مكان النظام الذي تمَّ تخريبـه. وبناءً على اختلاف السـياق الاجتماعـي الثقافي الذي تتمُّ فيه موضعة نتائج السـياق التاريخي الغربي، فإن الاضطراب والصراعات الثقافية والفكرية التي تحصل داخل هذا السياق المستهدف، كفيلة بتقسـيم المجتمعات في اتجاهات جديدة، ووفق معايير المستعمِر. مضافاً إلى ذلك، فإنَّ السِّـياق واللحظة التاريخية التي يتم فيها فرض الأفكار الغربية، تتَّسِمُ بالفوضى والتغيُّر الاجتماعي والانكسـار المعنـوي والتفكك النخبوي، فيتمُّ تلقـي تلك الأفكار بذهنية فاقدة للنقد والفعالية والإبداع.

ومن ناحيةٍ سياسـيةٍ، فإنَّ عدمَ التناسـب في الأفكار والموارد يتحول إلى إبادة، فالغربي يريد تحصيل كل ما يمكن من الموارد، وبالتالي فهو لا يكتفي بالسيطرة الثقافية فإن وتقبل الشعوب لأفكاره، بل هو يريد من ذلك وبعده الخضوع التام وتسليم الممتلكات، يُؤكد حلاّق هذا الأمر، فيقول "أزعم أن الكولونيالية – بنوعيها الاسـتيطاني وغير الاسـتيطاني - إبادية بطبيعتها، وبكل ما تحمله كلمة الإبادة من مضامين تتطلب منا توسـيع معنى الإبادة لتتجاوز الأشـكال المادية التقليديـة.. توجـد علاقة منطقيـة ووجودية لازمة بـين الأكاديمية الخاصَّـة بالنطاق المركزي والكولونياليـة مـن جهة، وبـين الكولونياليـة والإبادة من جهـة أخرى" (حـلاق، 2018)، يتم اسـتخدام الأفكار في عمليات الإبادة، الإبادة الفكرية والإحلال لمنظومة ثقافية وأخلاقية بدلاً من المنظومة القائمة، وهدم النظام الاجتماعي القائم على أساس ثقافته الخاصة. كما أنه هناك مشـكلة إضافية في الحضارة الغربية تتجسـد في تسـامح مجتمعاتها ولانحرافات، الاستعمار

والجريمة والشذوذ كمثال، نتيجة عدم وجود فكرة كلية تحكم الثقافة العامة للمجتمع والفوضى والتعددية. ولا يمكن تحكيم العقل أو الأخلاق للسيطرة على التيارات المتطرفة والمنحرفة، ولا تخضع للمحاسبة ولا للمحاربة، وبذلك فإن وجود التعددية والتيارات الإنسانية داخل المجتمع الغربي، لا يحدد المنتجات التي يتمّ فرضها ونشرها على الحضارات الأخرى، بل من يتحكَّم بذلك هو التيارات المنحرفة والكتلة الرأسمالية الحاكمة.

التجربة الصينية

تقدم التجربة الصينية نموذجاً مهماً هنا، فقد انزاحت نحو العلمانية والليبرالية الفكرية والفردانية، مع استفادة جزئية من النموذج الاقتصادي الليبرالي دون ترك السوق يتحكم بكل شيء، لكنها استطاعت التملص من الهيمنة، وهذا يعود إلى مجموعة عوامل وفواعل: العوامل البنيوية تتعلق بالموارد وعدد السكان الهائل وشعب منتظم ومصمم، والفواعل الواعية التي تتعلق بإرادة منبثقة من الهوية الحضارية الصينية، وخطة استراتيجية للخروج من الهيمنة الغربية بل والتغلب عليها، من خلال مواجهة استراتيجية بعيدة المدى. فأثناء افتتاح الندوة حول دراسة وتنفيذ روح المؤتمر الوطني العشرين للحزب الشيوعي الصيني بتاريخ السابع من شباط 2023، تحدَّثَ الرئيس الصيني شي جين بينغ قائلاً: "منذ المؤتمر الوطني الثامن عشر للحزب الشيوعي الصيني، واصل حزبنا التقدم على الأساس الحالي، وحقق باستمرار اختراقات مبتكرة في النظرية والتطبيق، ونجح في تعزيز وتوسيع التحديث على النمط الصيني. لقد تعمقَّنا باستمرار في فهمنا، وخلقنا فكر الاشتراكية ذات الخصائص الصينية في العصر الجديد، وحقَّقنا قفزة جديدة في تحديث الماركسية في الصين، وقدَّمنا أساسًا للتحديث على النمط الصيني. لقد تعمقَّنا في فهمنا لمضمون وجوهر التحديث على النمط الصيني، ولخصَّنا وشكَّلنا الخصائص الصينية والمتطلبات الأساسية والمبادئ الرئيسة لتحديث النمط الصيني، وبنينا في البداية نظامًا نظريًا لتحديث النمط الصيني لجعل التحديث على النمط الصيني أكثر وضوحًا وأكثر علمية وجدوى"، تمسُّك واضح بالهوية وبالبنية التي تأخذ من هذه الهوية خصائصها واتجاهاتها ومساراتها وأنماطها، فليس هناك انفكاك أو تداعي داخل النسق الصيني، بحسب رؤية بينغ، بل هناك اتساق وتلاؤم وانسجام وتماسك داخلي في الرؤية، بحيث

إنَّه يمكن أن يُسـمَّى كل بعد من أبعاد الرؤية بأنه ذو طبيعة وسـنخية صينية. بهذه الاستراتيجية اسـتطاعت الصين أن تفصل بين الاسـتفادة من التحديث التكنولوجي وحتى السياسي، وبين قبول هيمنة رواسب التجربة الاجتماعية الغربية على نسق التفكير الصيني[1].

أوَّلـت مجلة التايم البريطانية تصريح الرئيـس الصيني بالطريقة الآتية: "قال الرئيس شي جين بينـغ إنَّ التطـورَ الناجح للصين يُظهـرُ أنَّ هناك طريقة أخرى للتحديـث، رافضًا أيَّة حاجة إلى التغريب، والتركيز على مضاعفة أهدافه المتمثلة في زيادة الاعتماد على الذات وتحسين العدالة الاجتماعيـة، ويجب أن تعمل الصين على إيجاد طريق للتحديث أكثر كفاءة من الرأسـمالية" . وهـذا أمـر طبيعي، لأن التايم تصدر من بريطانيا التي كانـت بدورها تحتلُّ الصين، وافتعلت حرب الأفيون ودمَّرت أجيالاً من الشباب الصيني بفعل بيع الأفيون.

النقلة الحضارية المُصطنعة

تختلـف النقلـة الحضارية نتيجة التحـوُّل الداخلي عن النقلة الحضاريـة نتيجة الهيمنة، كما تختلف النقلة الحضارية الواعية والمخططة والهادفة إلى الحفاظ على الهوية والثقافة المحلية، وتوظيف التكنولوجيا التي اعتمدها الغرب في السيطرة والهيمنة، لتحقيق الاستقلالية والقدرة. فالغرب لا يريد للشـعوب الأخرى أن تصلَ إلى مسـتواه الاقتصادي والتكنولوجي، وهذا غني عـن التوضيـح، وإنَّما يريد لها أن تكـونَ خاضعةً بمواردهـا وجغرافيتها وأسـواقها وأدمغتها، ويعكـس كتاب أرتورو اسـكوبار (مواجهة التنميـة) الآثار الحقيقية لهذه البرامـج، فيقول "إنَّ خطابَ واستراتيجية التنمية أنتج نقيضه: التخلُّف الهائل والإفقار الذي لا يوصف والاستغلال والقمـع. أزمة الديون والمجاعة تتزايد، إنَّ الفقرَ وسـوءَ التغذية والعنـف ما هي إلَّا العلامات الأكثر إثارة للشـفقة لفشـل أربعين عامًا من التنمية" (Escobar,1995). يصف بعض الباحثين

1 - للتوسـع في هذا المجال، راجع: ليو جيان هوا، الأسـاليب الجديدة للتسلل الأيديولوجي الأمريكي للصين والإجـراءات المضـادة، مجلة جامعة هوا قياو، النسـخة الفلسـفية والاجتماعية، ترجمة ونـشر: مركز الإتحاد للأبحاث والتطوير، 31 آب 2023.

Xi Rejects 'Westernization' and Promotes China's Self Reliance in New Policy Speech

الانثروبولوجيين حالة التحول الثقافي الاستتباعين بحالة التهجين الثقافي، (See: Homi K. Bhabha, The Location of Culture, 2012). فالغرب لا يريد تحولاً كاملاً لدى الشعوب الأخرى، كما لا يريد لها أن تحافظَ على هوياتها، بل أن تصبحَ مهجنة ومختلطة ثقافياً، ويقوم بتحديد الموارد الثقافية التي يتمُّ نشرها وتعميمها وزرعها بالطرق المختلفة، من خلال هيمنته الإعلامية والتربوية والعلمية والثقافية والفنية.

كذلك، يمكن الاستفادة من التجربة الصينية، لنرى أنه حين يكون التوجُّه نحو العلمانية أو التحول الثقافي والفكري ذاتياً فإنّه يتَّسِمُ بالآتي: إرادة حرة للتحكُّم بالموارد الاقتصادية المحلية التي سيستفيد منها للتقدم العلمي وإحداث النقلة الاجتماعية، وانفتاح كامل على التفاعل المعرفي والعلمي وسيُحدث نقلةً نوعيةً، وسينتج ثقافة ونمط حياة اختياري يتناسب مع الخلفية التاريخية، دون حصول صدمة استعمارية ثقافية تحول دون أكبر قدر من الاستفادة ممَّا توصَّلوا إليه، مع تقنيات ومعارف منسجمة مع التحول. بالإضافة إلى أنّ الإدارة الحرة المستقلة للبلاد تستطيع توفير وتوزيع الموارد بشكل يؤدي إلى نهضتها، وبالتالي تتمكن من توفير احتياجات إنتاج الفكر والمعرفة والعلم وتبنِّي البيئة المناسبة لاكتساب الثقة بالذات وبناء الرؤية الخاصَّة.

الصدمة الحضارية

الصَّدمة الحضارية مفيدة إذا كانت تلقائيَّة، فعندما تصطدم حضارة صاعدة بأخرى خامدة، قد يحصل تفاعل إيجابي يحرّك الخامد بفعل جاذبية وفعالية الصاعد، لكن عندما تترافق النَّقلة الثقافيَّة مع النَّقلة الاخضاعية، تختلف النتائج بشكل حاسم، وما يحصل هو تهجين يجمع بين الخضوع والخمود والتغير والتحول. وهذا التكوين المختلط لا ينتج قدرة ذاتية على خوض مسار التطور وتوفير متطلباته، بل هو يُشكِّلُ حالة ضعيفة وعاجزة ومرتبطة حصراً بالمدير الغربي، وتصبح النخب المهجنة والمستفيدة من الشَّراكة المادية مع المهيمن، حالة مترفة في مجتمعات يتمُّ إفقارها بالتعاون مع تلك النخب، بشكل منتظم ومبرمج، وهنا لا يمكن أن نستخدمَ نموذج هذه النخب المستفيدة للاستدلال على محاسن الهيمنة، فهي حالة خاصة محصورة جداً.

فشل الشعوب في التحديث

يطرح الغرب سردية ويُروجها وقد انتشرت بشكل واسع في الأطر الثقافية في العالم العربي والبيئات التي تمَّ إخضاعها، وتقومُ على أنَّ الشعوبَ الخاضعة لم تتمكن من استيعاب الحضارة الوافدة لأسباب تتعلق بالضعف الداخلي لبنيتها الاجتماعية والسياسية، في الوقت الذي تتعرض فيه هذه البنى لعمليات تفريغ وتجويف وتفكيك ممنهج من قبل المهيمن الغربي، ما يفاقم نقاط ضعفها الداخلية ويحافظ على استمرارية وتنامي نقاط الضعف تلك، ويمنع أية حالة تحررية أو استقلالية من القيام أو النجاح أو الاستمرار. يشير والتر رودني إلى سياق تاريخي للتخلُّف الممنهج إذ "كانت المجتمعات الأفريقية والآسيوية تتطور بشكل مستقل حتى استولت عليها القوى الرأسمالية بشكل مباشر أو غير مباشر. وعندما حدث ذلك، زاد الاستغلال، وتبع ذلك تصدير الفائض، ممَّا حرَّم المجتمعات من الاستفادة من مواردها الطبيعية وعملها. وهذا جزء لا يتجزأ من التخلُّف بالمعنى المعاصر" (Rodney, 1973). وبلا شك، فإنَّ المجتمعات المستهدفة تحمل في بنيتها أسباب الضعف وإشكاليات سياسية واقتصادية تحول بينها وبين النهوض، لكن الخروجَ من هذه الإشكاليات لا يتمُّ من خلال السماح بالمهيمن بالتدخُّل، لأنه ينفذ من خلال نقاط الضعف هذه ويحافظ عليها وينمِّيها ويعمِّقها.

إيديولوجية التقدُّم

حدَّدَ المشروع الغربي مساراً نمطياً للتغيير، يتضمن مراحل انتقالية، تشكل إسقاطاً للتغيُّر الذي شهدته الدول الغربية، ويفترض أن التطور التكنولوجي والعلمي يعود إلى الخوض في هذه المراحل الواحدة تلو الأخرى، وفي الحقيقة أن هذا الإسقاط يخفي عوامل أخرى لا يمكن إغفال تأثيرها على التطور المادي في الغرب، في حين أنَّ الانحطاطَ الأخلاقي الذي يعيشه الغرب يتصل بشكل مباشر بالمراحل التي يطلق الغرب عليها مراحل التقدم التي نقلته إلى حالة العلمانية الشاملة والانحلال الأخلاقي الحاصل الآن. العوامل التي يغفلها الغرب تتعلق، كما أسلفنا، بالموارد المادية التي تدفقت بشكل غير مسبوق نحو الدول الغربية من الأراضي الأمريكية بدايةً، وفي المرحلة الثانية من خلال النهب الاستعماري الهائل. إنَّ إخفاء

تأثـير العامـل المادي في إنتـاج تطور مادي وتكنولوجـي يعود، في أحد جوانبـه، إلى أن هذا العامل الشـديد التأثير قام على أساس غير مشروع من إبادات جماعية وعمليات نهب شاملة، ولذلـك تم الاكتفاء بتقديـم التغير الثقافي والفكري كعامل وحيـد في التطور المادي الغربي، ويتم استخدام هذا النموذج في عمليات التهجين، من خلال نشر الوعود الغربية بأن اتباع نسق التقدم العلماني الغربي سـيؤدي تلقائياً إلى الرخاء والازدهار، في الوقت نفسـه الذي تقوم فيه الآلة الغربية بنهب وإفقار الشعوب التي تتعرض لعمليات التهجين.

العلاقة بين التحديث والهيمنة

لا يمكـن أنْ تحصـل النقلـة الحضارية بهذه الطريقـة، إذ لا يمكن مكافحـة التدخل الغربي الاقتصـادي مع الخضوع للمنظومة الفكرية الغربية، ومن هنا فإنَّ تقبل المنظومة الفكرية يعني بالتالي الخضوع للهيمنة وإن بشـكل تدريجي، والناتج الماثـل أمامنا يؤكد التلازم بين التبعية والتخلُّف بعد ثلاثة قرون من فرضية التحديث الغربي. لا شك بأن البنية العربية، أو العالمثالثية، تتضمن ثغرات ومشـكلات وأزمات عميقة، ككل البنى الحضارية الأخرى، ومن ضمنها البنية الحضارية الغربية التي تعاني من اختلالات أخلاقية واجتماعية هائلة، لكن السـياق التاريخي الذي سـارت فيه الـدول الواقعة تحت خط الهيمنة لا يسـمح لها بتطوير ذاتهـا، بل يُخضعها لبرنامج اسـتلاب فكري وهوياتي وتدمير اقتصادي وسـياسي، وتم إنعاش نخبها برواية التطور والحداثة من خلال تهجين فرداني التقاطي لا يؤهلها إلى إنتاج معرفة وموقف مفيد في انتشال بيئتها من الأزمات، بل أصبحت تلك النخب شريكة للناهب الغربي في الحفاظ على استمرارية الخضوع والاستلاب والنهب والإفقار.

الدور الفاعل للنموذج التحرُّري

يفـترضُ النموذج التحرُّري أنَّ الرغبـةَ في التعبير وبناء الطاقة التي تُحرِّك وتحافظ على الطموح، ينبغي ألَّا تكون مفروضة، بل بقرار ذاتي. فعملية التغيير تختلف جذرياً عن عملية الالتقاط، الثورة الداخليـة والمحليـة هي نقيض عملية الالتقاط، بـل إنَّ التحفز العقلي الواعـي للتغيير والتطوير الحضاري، يتناقض بشـكل تلقائي مع عملية التهجين والاغتراب عن الذات وفقدان الهوية نتيجة

الازدواجيــة والاضطراب المتأتي من عبثيــة الأفكار الغربية، والأزمــات الأخلاقية التي تصاحب عملية التهجين. إن كل ذلك يمنع من قيام العقل المتحفز والمنطلق باجتراح الحلول والتصورات المناسـبة للثقافة والاجتماع المحلي، كما أن أحد الأزمات العميقة التي أحدثها الاسـتلاب نحو الغـرب، هــو الاضطراب الفكري الناتج عن التخـلِّي عن الرؤية الكونية العقلانيــة والواقعية التي كانت تحملها الشعوب الإسلامية، لصالح فوضى فكرية وإيديولوجية عارمة، إنَّ هذا التخلِّي بذاته يُؤدِّي إلى اختلال النظام الفكري برمته، ولا يترك تفصيلاً إلاَّ وأحدث فيه أزمة وانكساراً.

الإحباط الفكري والتقليد

إنَّ المجتمع الذي يقوم بتقليد الآخرين ويتغير بفعل الدعاية والترويج والهيمنة الغربية، هو يتغير بفعــل تأثير الآخر، ولم يتولد التغيير من داخلــه، عندما قرَّرت هذه المجتمعات أن تتبنى التجربة الغربيــة المضطربــة، لم تقم بعملية تغيير جوهــري ذاتي. هذا التغيير الجوهــري الذاتي يفترض حصــول تحول في معرفــة النفس والوجود والغاية، لا أن يكون منطلقــاً من الخارج ومن نموذج فوضوي لا يعتمد على معرفة النفس، لا بل يُشكك في أصل إمكانية المعرفة، فالتحول الجوهري يفترض أن يبنى على أســاس اليقين، لكي يتشــكل الدافع الذي يكفل الاســتمرارية، والذي يتبع الغرب الفوضوي اللايقيني إنما يسير بفعل المحرك الغربي وليس بفعل الدافع الذاتي.

هذا البنيان المعرفي للحركة الجوهرية للتغيير يسمح لنا بتشييد الرؤية الجديدة بناءً على الفكر الــذي يدرك ذاته ويمكن من خلال تلك الرؤيــة الانطلاق خطوة إثر خطوة، في رؤية تلائم بين كل الخطوات وبين الهدفية الكونية، بحيث يتأتى من هذا التغيير الجوهري ناتج إيجابي يحرس الإنســان من الاضطرابات والتناقضات، ويســاعده على إدارة التناقضــات والأزمات الجارية، مضافــاً إلى خوض النقلة المفصلية لعملية التغيير، وهي التخلص من الهيمنة التي تنتج الدمار الأخلاقي والفكري والاقتصادي في آنٍّ واحدٍ.

وظيفة التمايز للابداع الفردانـي

مَوْضَــعَ الغرب عملية الإبــداع الفكري داخل الإطــار الفردي، وهذا ما تســبب بالعبثية والتخبط الذي لا نهاية له، خصوصاً على الصعيد الأخلاقي، حيث وصل به الأمر الآن إلى تفكيك الشــعور

الإنسـاني وتهديم الهوية الشخصية، فالإبداع ها هنا يُعبِّرُ عن التمايز ولا يعبر عن خدمة الحاجات الإنسـانية، فـكل مُفكِّر يبحث عن تمايزه الخاص، ويدخل سـوق الأفكار بهـذا الدافع، ونجد أن فقـدان المعايير الموحدة التي يمكن أن تكرس إمكانية النقاش الاجتماعي قد أدى إلى انخسـاف العقـل الغـربي وانحداره نحو أقصى الدنـاءة. وهذه المعايير التي يفترض أن تكون راسـخة وغير قابلة للتشكيك، بحيث تكون مقبولة من الجميع، ولا يمكن للسلطة الفكرية البشرية أن تثبتها، بل تحتـاج إلى مصدر كامل المعرفة لكي يثبتها ويعطيها المشروعيـة، فلا تكون مُعرَّضة للاضطراب. بالمقابل لم يفتح الغرب مجالاً للتعددية كما يدَّعي، بل هو يسمح بالتعددية داخل الإطار الفكري المادي، وأي فكر معياري غير مسـموح له بالحضور، وغير قابل للنقاش، وأقصى ما يمكن هو أن يتمَّ التعامل معه كبيئة مخالفة تتم دراستها لإخضاعها عبر الاستشراق وتصنيفاته ونظائره.

الإبـداع الفردي لا يؤدي إلى النهضة الحضاريـة، بل هي تحتاج إلى الإبداع الجماعي ضمن رؤيـة كلية جامعة، تنظـم الطاقات الفردية وتوظفهـا، يمكن توظيف الفرديـة الفكرية من قبل الغـرب لإحداث انقسـامات وشروخ في المجتمعات المسـتهدفة، لكن نفـس عملية الإبداع الـذاتي المتحرر من الإطار الغربي المهيمن هي محل اسـتهداف، ومحـل محاربة ومواجهة، فكل انفكاك للبيئة المسـتهدفة عن الأطر الفكرية المهيمنة يشـكل خطراً على حالة الاستكبار، ومن هنا تبدأ الحرية الفكرية الذاتية غير المصطنعة.

الدور السلبي للهيمنة الفكرية

يتعرَّض العقل الثوري إلى انتكاسـة ويقع في السـطحية حينما يقبل بالإملاءات التي تفرضها الهيمنة، تلك الهيمنة التي تنطلق في اسـتعلائها وتعاليها من نقطة اختلال أساسـية، هي فقدان البوصلـة الموجِّهـة للتغيير والتطور، فتـأتي لتملي ثقافتها ضمن عمليـة التهجين وهي تحمل مشكلة فقدان البوصلة، الذي يؤدي إلى اتجاه الإنسان نحو الهيمنة والإبادة الجماعية للآخرين جسـدياً أو ثقافياً بهدف السيطرة على الموارد، باعتبارها الناتج النهائي لعملية التغيير والتحضر والتطـور التكنولوجي والهـدف المقصود والواعي لتلـك العملية. فالعقل الثـوري هو الذي يمتلـك الحريـة الذاتيـة والبوصلة الموجهة نحو التغيـير الفعلي والواعـي، والذي لم يقع في إشـكالية العبثية أو الإختزالية، التي تحصر حالة التغيير والتقدم في المجال المادي، الذي هو

أدنى مجـالات الحياة. فالثورة الجوهرية لا بد وأن تطال عالم المعنى والشـعور والأخلاقيات السامية والوعي الوجودي المتلائم مع الواقع الكوني، وإلَّا ستكون ثورة سطحية.

حينـما يخضع العقل لفعـل الهيمنة الخارجية، ويبـدأ بعملية التغيير من خـلال التأثر بقدرة المسـتعمر، ويتقبل ما يملي عليـه الوافد المتمكن مادياً بفعل النهـب، ويرضخ لإملاءاته التي تتضمن بما ينبغي أن يؤمن وما سـيتبنى ؟، ويقبل بأن يتجاوز العقلانية ليلحقَ بركب "التطور"، فيتقبـل فكرة الماضوية التي تقيم العقل البشري بحسـب الزمن الذي صـدرت فيه أفكاره، إنَّ هذا العقل يتعرض لعملية إحباط وتسـكين واستتباع، بحيث يصبح عاجزاً عن اتخاذ الموقف، وعملياً تكون عملية التغيير هي عملية تكرار لما يصدر عن المهيمن، وليست عملية تغيير، فلا تجديد هنا، بل مجرد تكرار، يقع في مستوى السطح من المستويات الفكرية. فالمهيمن يتحرك في المجال المادي بشـكل أسـاسي، ويترك الجوانب الجوهرية في الوجود الإنسـاني تتجمد وتبهت وتموت بفعل الإهمال أو بفعل الإخضاع.

أزمة المنهج

يمكـن تصنيف المنتج الفكري الغربي وفق منظورين، الأول سـياسي والآخر ثقافي. المنظور السـياسي، يهتم بالسيطرة على الإنسـان من خلال فهمه ومراقبة سـلوكه وإنتاج أدوات التأثير، الفيصـل هنا في الاسـتفادة من هذا الناتج الفكري هي المـوارد فلا يمكن توظيف هذا المنظور ومنتجاته الفكرية والعلمية بالشكل المجدي بدون توفر الموارد الكافية، ولذلك تحتاج الاستفادة من المنتج الفكري تحت هذا العنوان إلى الاعتماد على الذات واتخاذ القرار بشـكل مسـتقل، والأخذ بعين الاعتبار المصلحة الذاتية، واتخاذ قرار عقلاني رشـيد، بعيداً عن تنسيق الخطوات مع برامج الهيمنة ومراعاة اسـتمرارية النهب. كما أن توظيف المنهج الذي يسـتخدمه السياسي الغـربي مع فارق المـوارد يعني تعطيل الفعاليـة وإضعافها، فهنا يحتاج المجتمع المسـتهدف بالهيمنـة إلى منهـج خاص يُرمِّـمُ صدعَ المـوارد، وألَّا يتصل المنهـج مباشرة بسـياق الهيمنة والخضوع لها، ويفقد الدافع والقدرة على خدمة القرار الذاتي وتحرير المصالح المنهوبة.

أمَّا المنظور الثقافي الغربي فيهتم بتقديم العلاج للإنسـان من المشـكلات الفردية والجماعية على شـكل توصيات ناتجة عن استقراء التجارب وإنتاج الأفكار. يقع المنتج الفكري الغربي/

الاختزالي[1] تحت هذا المنظور في عدة إشكالات عميقة، التعددية المفرطة، المرجعية الذاتية/ الموضوعيــة، فقدان الرؤية الكلية، النقض المتبادل بــين النظريات، تأثير التيارات واللوبيات، هيمنة الرأســمالية على ترويج الأفكار ومراكز الفكر. هذه الإشكالات تحوّل المتلقي إلى حالة من التشــوش والاضطراب والاضطرار إلى التلقي الفوضوي، وفي حال ضعف الحس النقدي الذي تتميز به البيئات المُعرَّضة للهيمنة، فإن المتلقي ســيتأثر بهذا النســق المشــتت، وسيفقد الانتظــام في الرؤيــة، وبالتالي فإنه ســيحتاج إلى الدخول في حالة الفــوضى والخضوع لحالة التلقي المتكثر، الذي يغفله عن الإنتاج المعرفي أو النقد للمنتج الوافد، الذي يفترض أن ينظر إليه بتقدير وبـ"موضوعية" تتجاوز الموقف الســياسي، وبالتالي فعليه أن يقبله. في حال امتلك رأيــاً نقديــاً، فإن ذلك لا ينبغي أن يُشــكِّلَ موقفاً فكرياً، بل يتم توضيــب هذا الرأي ضمن حق الاختلاف، المؤسَّس على فقدان المعايير والمرجعية والرؤية الكلية.

وبناءً على هذا التشريح للناتج الفكري المهيمن، ببعديه السياسي والثقافي، فإنَّ أثرَ التلقي من ناحية المنهج لهذا النوع من النتاج الفكري هو الخمود والتشتت وإضعاف القدرة على التفكير الحر، وانتشــار الرهاب تجاه إطلاق الأفكار الجديدة، وهذا عامل أساسي في استمرار الهيمنة، فالتحرر يحتاج إلى تفكير حر وبحث متفائل ورؤية تتجاوز السائد من الخضوع والتبعية.

■ ثالثاً: البديل الذاتي

تمتلك الشعوب المستضعفة الإمكانات الكافية للإبداع والإنتاج الفكري، والبديل الذاتي هو المفتاح الأكيد لتفعيل الإبداع عوضاً عن الاســتيراد والاســتتباع والخضــوع للمنظومة الفكرية الرغبية، دون أن يعني ذلك الانغلاق بل امتلاك حرية الانتقاء وتحكيم المعايير الخاصة.

بدعة الماضوية

أسَّــسَ الغربُ مفهوم الحداثة على أســاس أن الأفكار والنماذج التــي مرَّ عليها الزمن تخضع لعمليــة إقصاء باعتبارها غير مجدية، وقد نشــأ هذا المفهوم في ســياق عملية التداعي والقطع

1 - للاطلاع على مفهوم الاختزال راجع: قبيسي، هادي (2018) المعايير القرآنية للعلوم الإنسانية، معهد المعارف الحكمية.

الحـاد مـع المنظومة الفكرية التي كانت سـائدة في الغـرب، بفعل الـردة التاريخية عن الدين السماوي، فقام التحديث على أساس القضاء على النظام السائد وكل متعلقاته، فتم التخلِّي عن الكثير من البديهيات العقلية والأخلاقية تحت هذا الشـعار، وذلك لتجويف القواعد التي يقوم عليها الطرح الديني وتفكيك البنية التحتية لنظام السلطة الكنسي.

يسـتطيع الإنسـان الحكم على قيمة الأفكار من خلال المنطق والتجربة والوحي الإلهي الذي يُوفِّـرُ المعرفـة اليقينية، ولا يمكن اعتبار أن الأفكار السـائدة في زمن ما كلها غير سـليمة وغير منطقية، فهذا تعميم ينشـأ عادةً بفعل الحالات النزاعية التي تؤسـس للإقصاء والانحياز الحاد. قامت الحالة الغربية على أساس التطرُّف في الانحياز ضد الماضي، نتيجة الصراع الحاد والدموي الذي خاضته القوى الكنسية التقليدية ضد مسار الردة الحضارية، فنشأت بفعل هذا النزاع حالة مـن التطرُّف الحاد، وجاءت الطروحـات الفكرية لتشرعن هذا المفهـوم، وأصبح إطلاق صفة الماضوية على فكرة ما يعني سقوطها المنطقي، في حين أن الفكرة لا تتغير قيمتها بفعل الزمن.

إنَّ كُلَّ عملية تغيير تفترض الاسـتمرارية للمعطيات السابقة على عملية التغيير؛ والتي تتضمن القيم المفيدة في المستويات المختلفة، فلا يفترض في عملية التغيير أن تكون قائمة على أساس التحيز للمستقبل على حساب الماضي. تتشابه عملية التهجين التي يقوم بها الغرب مع عمليات التغيير في هذه الناحية، فالتهجين يتضمن كذلك نسـبة من الاسـتمرارية ونسبة من التغيير، لكن سياسة المهيمن تقوم على أساس التخلُّص من الأفكار التي تمنع الهيمنة، وإنبات أفكار جديدة تسـمح بالهيمنة وباسـتمراريتها، فهنا الانتقائيـة تدميرية، أما في عملية التغيـير الجوهري، فإن الانتقائية التي تحدد مساحة الاستمرارية ومساحة التغيير هي انتقائية رشيدة هادفة.

البديل الطبيعي

البديل الطبيعي لثنائية الهيمنة/التهجين، هي الثورة الفكرية والسياسية الذاتية، التي تنطلق من القناعة الراسخة والمعرفة بعمق هذا التحول وكيفية استمراره وكيفية استمرار الحالة الثورية فيه، وهذا يحتاج إلى حركة تتأسـس من خلال وعي محتضن برؤية كونية شـاملة وواقعية، تحتكم إلى مرجعية كاملة المعرفة بالوجود والكون والإنسان، وإلى هدفية واضحة ومُشخَّصة ومتلائمة مـع أصل الخلقة والتكوين، بحيـث يكون التحول المراد إحداثه غـير واقع في حالة التناقض

والتعددية المفرطة التي تؤدِّي إلى العبثية والتغيير المُدمر، وهذا ما يحصل عبر عملية التهجين التي يُحرِّكها الغرب.

وفق هذا التبيين، يتكون لدينا استدلال موضوعي على أن رفض الهيمنة ليس دافعه الخلاف الحضاري أو السياسي أو الديني فحسب، وإنما تلقِّي نقلة حضارية أو استيعاب نقلة حضارية في إطار الهيمنة هو أمر لا يؤدي إلى نقلة حضارية بل إلى التهجين والتعلُّم السطحي.

الثورة الجوهرية والنزعة التغييرية

تحصل عملية التوفيق بين الاستمرارية والتغيير في عملية التغيير الجوهري التي تنطلق من رؤية كونية ثابتة تستند إلى معرفة تقرها مرجعية التكوين الإلهي من خلال الوحي، ومن خلال المقومات الثورية الكامنة بشكل تلقائي في العملية النبوية. فالحركة التي يريدها الوحي هي حركة تغيير ونقل للإنسان من حالة القابلية إلى حالة الفعلية، من الفطرة الكامنة إلى الجوهر المتحقق. و هذا يعني أن في داخل كل إنسان فرد ثورة جوهرية أولاً، وثانياً: إنَّ لكل جيل حركته لتحقيق تلك الثورة تبعاً للظروف التي قد تُشكِّلُ فرصاً وتهديدات تجاه تلك الثورة التكاملية، وثالثاً: يفترض أن تنعكس هذه الثورة الجوهرية داخل الفرد والجماعة في تجليات سياسية واجتماعية واقتصادية شاملة، تتعلق بالأبعاد المادية والأخلاقية على حدٍّ سواء، في توازن ينظم الأولويات وفق الشريعة، وتسير عملية التغيير هذه في خضم التاريخ، حيث تواجه حالة الهيمنة والاستعلاء الموجودة على امتداد الزمان. والتي تقمع الثورات الجوهرية بطبيعتها، لأن تلك الثورات تطلب بشكل حثيث التخلص من الهيمنة، وذلك فإن هذه الثورة الجوهرية الفردية ومن ثم الجماعية، تكون ثورة سياسية ضد الهيمنة بطبيعتها.

هذه درجات أساسية للثورة الجوهرية، تحدد كيفية القطع والوصل مع الماضي، فهي تريد للإنسان أن يقطع مع الماضي الشخصي أي بشكل حصري مع حالات التخلُّف والانحراف المحددة بشكل مسبق وفق الشريعة، وهي لا تقطع مع الماضي لأنه ماضي، وكذلك بالنسبة إلى المجتمعات والأمم، فهي تريد لها أن ترفع الأغلال التي كانت في الماضي، لا أن تتخلص من كل الماضي لأنه قد مضى، فليس هناك صراع مع الزمان هنا.

الثورة الداخلية

إنَّ المجـالَ الجوهري/الأخلاقي/الثـوري يتيح المجال ليقوم كل إنسـان بدور ثوري خلال حياتـه، دور تجـاه ذاته والمجتمع وتجـاه حقل الصراع الدولي الحضاري، ولا يريد للإنسـان أن يقـعَ في التكـرار وفي تقليد السـابقين، ولا في حالـة التخلي عن الماضي لأنـه ماضٍ، بل إخضاع الماضي والحاضر والمسـتقبل لمعايير العقل والشريعة، بحيث يسـتطيع هنا بالتحديد تشـخيص الخط الثوري المطلوب، مع نقطة إضافية أساسية، إنَّ عمليةَ التغيير الجوهري تتميز بأنهـا تخوض مسـاراً خاصاً تنفرد به، هو مواجهة المهيمن، وهـذه هي نقطة مركزية في مفهوم الثورة عبر التاريخ.

الفكرة الغريبة

ثمة إشكالية هنا تتعلق بكيفية تولد الأفكار واستحداث المفاهيم، إنها تتولد من خلال المعرفة العميقـة بالقضايا والموضوعات والحالات التي تحتاج إلى المعالجات الفكرية، فهذا التوليد ينتـج عن المزاوجة بـين النظام الفكري والثقـافي وبين الحاجات الزمنية المسـتجدة، بحيث تتشـكل رؤية مناسبة للحالة وملائمة للنظام الثقافي، أما عندما نتلقى نظاماً فكرياً تم استحداثه واستنباته في بيئة مغايرة ولحاجات مختلفة ولظروف متفاوتة عن حاجات المجتمع الذي نعيش فيـه، فإننا نصنع من خلاله فكرة هجينة وغريبة عن ذواتنـا، والفكرة الغربية أو الهجينة التي لم تتولد عن وعيي الذاتي لن أستطيع أن أولد منها أفكاراً جديدةً، هذا في حال بقيت القدرة والنية والرغبة على البحث عن أفكار جديدة، فتدفق الإبهار الغربي يجعل المتلقي الخاضع غير قادرة عـلى الحصول على مسـاحة خاصة للتفكير، فهـو يُكرِّس جلَّ وقته لتشربَ مـا يُقدّمه الغرب، فيكون من ناحيـة عملية ضحية الانصياع المعنوي والخضوع المصحوب بالهيمنة والسـيطرة المادية والإخضاع والظلم.

بالمقابل فإن الإحسـاس بالحرية ينتج عنه الإحساس بالقدرة، والثقة بالذات والجرأة الفكرية والشـعور بالمسـؤولية تجاه الكينونة والوجود والحياة بما يؤدي إلى تحفز وتدفق الفكر، وهنا نلاحظ آثار التولد الذاتي للمعرفة على كثافة الإبداع وغزارة الإنتاجية عندما يحصل التفاعل بين العقل والتجارب والشـعور الذاتي والجماعي والبيئة وشغف الاكتشاف والتفاعل الاجتماعي

مع الأفكار الإبداعية الجديدة الملائمة للحاجات والمشاعر والثقافة المحلية، بما يولد ويحرك عجلة التفاعل الفكري ويؤدي إلى خصوبة فكرية مرتفعة.

وباء "النخب"

تقدم النخب التابعة والخاضعة للتدفق الفكري والثقافي الغربي على أنها تمارس عملية التحديث والتقدم والتغيير نحو التطور، في الوقت الذي تمارس عملية تكرار وإسقاط غير متناسب مع الفطرة الإنسانية ولا مع الحاجات المحلية ولا الثقافة الاجتماعية ولا حاجات التحرر والاستقلال وبناء الدول والشخصية والهوية الوطنية، وفي الحقيقة فإن هذه النخب هي الأقل إنتاجاً للتحديث، وهي تطبق برنامجاً تقليدياً يُكرس استمرارية حالة الإخضاع وتسقط الأمم في حالة من الركود الاقتصادي والخمود الفكري والاضطراب السياسي، والصحيح أنها تقوم بالتغيير من الانتماء إلى الحالة الوطنية وخدمة المجتمع إلى خدمة الآخر المهيمن، في الوقت الذي تحتاج فيه المجتمعات التي تعرَّضت للاستعمار المباشر أولاً وللاستعمار الحديث ثانياً إلى فعالية خاصة من النخب لكي تستعيد الوضع الطبيعي وتصبح قادرة على تحمل مسؤولية حاجاتها لتحقق الحالة العادلة والمناسبة للإنسان من النواحي المختلفة المعنوية ثم المادية.

لذلك يقدم الغربُ الطروحات المتطرفة لدواعي تجارية وسياسية، فيما لديه تنوع كبير من النتاج المحافظ والأخلاقي، لكن ما يرشح من هذا الوعاء الحضاري هو الأفكار الناشزة والمضطربة باعتبارها تقدماً ثورياً، لكن الاستفادة ينبغي أن تكون عبر وعي البيئة الحضارية الغربية، باعتبارها بيئة متنوعة، واختيار بعض الطروحات لتقييمها من خلال المنظور الثقافي الذاتي، ينبغي أن يكون بحرية تامة، دون تدخل سياسات الترويج والهيمنة السياسية والكولونيالية الأكاديمية.

خاتمة

لقد خلصنا في هذا المقال، إلى تشريح العديد من الآثار الفكرية المتنوعة التي يسببها الاستتباع الثقافي والكولونيالي، وهي متمحورةٌ حول فكرة أن الخلاص من هذه الآثار يستدعي

الانتقـال إلى البديل الطبيعـي والواقعي والذي يفرض بدوره عملاً متعـدد الاتجاهات. وهذه الجدلية تصل بين الأفكار والظروف السياسـية العامة، إذ إنَّ الأفكار التحررية أو المتحررة من الأطر الفكرية المهيمنة تحتاج إلى التحول إلى سلوك وإلَّا تبددت وانغلقت، وهذا السلوك إما يتصل بالسعي المباشر إلى التحرر أو يحتاج إلى درجة من التحرر حتى يمكن القيام به، وبذلك يغدو تزامن التفكير والعمل للتحرر من التبعية ضرورة لنجاح كل منهما.

وبناءً على ما تقدم في هذا البحث، ونسـتنتج أنَّ لجوءَ البعض إلى طرح إمكانية فصل التحرر الفكري/العلمي عن التحرر السـياسي هو رهان ضعيف، وهو بالتالي يطرح الأسئلة عن حقيقة هـذا التحـرر الذي يتعلق بزوايا منحصرة في الفضاء العام ومقتـصراً على نخبة محددة، ناهيك عـن تأثر تلك النخبة بالأبعاد الحياتية المختلفة، واضطرارها بالتالي إلى مراعاة الهيمنة للتخلي عن أجزاء من أفكارها التحررية في هذا السبيل.

المصادر والمراجع

جيان هوا، ليو(2023) الأســاليب الجديدة للتسلل الأيديولوجي الأمريكي للصين والإجراءات المضادة، مجلة جامعة هوا قياو، النســخة الفلســفية والاجتماعية، ترجمة ونشر: مركز الإتحاد للأبحاث والتطوير.

حلاق، وائل (2018) قصور الإستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

الفاطمي، طارق (2018) التعليم في عهد الاستعمار وأثره في صناعة النخب: المغرب أنموذجاً، في: نحن وأزمنة الاستعمار، الجزء الثاني، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية.

قبيسي، هادي (2018) المعايير القرآنية للعلوم الإنسانية، معهد المعارف الحكمية.

قبيــسي، هادي (2021) الاحتلال الذاتي: آليات الاســتتباع الناعم للقوى الغربية، مجلة جامعة المعارف، العدد3.

Smith, N. (2008) "The Consequences of the Thirty Years War". Article Myriad. Credit: http://www.articlemyriad.com/thirty_years_war.htm>/

Voegelin, E. (1998) Religion and The Rise of Modernity, Uni. of Missouri press.

Emory Richard Johnson; et al. (1915). History of domestic and foreign commerce of the United States. Carnegie Institution of Washington.

Weingast, B. (2017) War, Trade, and Mercantilism: Reconciling Adam Smith's Three Theories of the British Empire, SSRN Electronic Journal, January 2017.

Jacob, M. (2001) The Enlightenment: Brief History with Documents, Boston: Bedford/St. Martin's, 2001.

Xi Rejects 'Westernization' and Promotes China's Self Reliance in New Policy Speech.

Lapidus, I. (1975) The Separation of State and Religion in the Development of Early Islamic Society, International Journal of Middle East Studies, Vol. 6, No. 4 (Oct., 1975).

Escobar, A. (1995) Encountering Development: The Making and Unmaking of the Third World, Princeton: Princeton University Press.

Bhabha, K. (2012) The Location of Culture, Edition 2, revised, Routledge, 2012

Rodney,W. (1972) How Europe Underdeveloped Africa, Canadian Journal of African Studies / Revue Canadienne des Études Africaines, Vol. 9, No. 1 (1975).